الفصل الثاني
عوامل انتشار المذهب المالكي وسيادته في بلاد السودان الغربي

أولا ـ العوامل الداخلية:

١ـ تغلب المذهب المالكي على غيره من المذاهب والنحل الإسلامية

٢ـ ملاءمة المذهب لطبيعة أهل السودان الغربي .

٣ـ دعم السلطة الحاكمة للمذهب المالكي .

ثانيا ـ العوامل الخارجية:

١ ـ ذيوع صيت الإمام مالك إمام دار الهجرة .

٢ ـ التأثير المغربي.

٣ـ رحلات الحج والرحلات العلمية .

بعد أن عرضنا للعوامل التي أدت إلي انتشار المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي نحن الآن بصدد الحديث عن العوامل الداخلية والخارجية التي أدت إلي توطين هذا المذهب وسيادته في تلك البلاد في عهد دولتي مالي و صُنغى الإسلاميتين.

أولا ـ العوامل الداخلية :

١ ـ تغلب المذهب المالكي على غيره من المذاهب والنحل الإسلامية :

من الواضح لدينا أن أصحاب المذاهب الإسلامية من السنة والخوارج الصفرية والأباضية كان لهم إسهام كبير وواضح في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي خلال القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. ففي خلال هذا القرن نشطت التجارة التي أسهمت بدورها في نشر الإسلام و كذلك نشر بعض ارائهم الدينية ، وقد ساعد على ذلك حيوية التجار ، ودور السلطة السياسية في الشمال الإفريقي وبلاد السودان الغربي و توفير الأمن على طول الطرق التجارية[1].

وقد استمر نشاط تجار الفرق الإسلامية الدعوي للإسلام خلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ومع نهاية هذا القرن انتهى دور الخوارج الصفرية في السودان الغربي بسقوط دولتهم في سجلماسة عام(٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) ،وبدأ كذلك دور الأباضية في الضعف بعد سقوط دولتهم في تاهرت عام(٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) ، وكان هذا بسبب قيام الدولة الفاطمية الشيعية في المغرب ، فقد سعت تلك الدولة جاهدة من أجل بسط نفوذها على العالم الإسلامي بشكل عام ، لذلك كانت رغبة خلفائها في الاستفادة من المبادلات التجارية عبر الصحراء

(١) الحبيب الجنحانى : المغرب الإسلامي ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣ـ٤هـ/ ٩ـ١٠م) الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨، ص ١٠٢ ، ١٤٦.

الكبرى ، ليتسنى لهم الحصول على كميات الذهب لتساعدهم في تمويل فتوحاتهم وضرب عملتهم . ولكن فشلت الدولة الفاطمية الشيعية في بسط نفوذها ، كما فشلت في نشر مذهبها في بلاد المغرب ، وبالتالي في بلاد السودان الغربي .

ثم شهد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي استمرار نشاط تجار السنة المالكية في بلاد السودان الغربي مع الغياب التام لتجار الفرق الإسلامية الأخرى ، وفى هذا القرن قام المرابطون بدور دعوى في تلك البلاد ونشروا الإسلام على أساس المذهب المالكي، ولذلك حدث انتصار للمذهب المالكي في تلك البلاد ، إذ أصبح مذهب الحكام والمحكومين .

وتوضح مرحلة ظهور المذهب المالكي في السودان الغربي والتي عرضنا لها في هذه الدراسة كيفية تغلب المذهب المالكي على غيره من المذاهب حتى توطن بمفرده في بلاد السودان الغربي[1] .

٢ ـ ملاءمة المذهب المالكي لطبيعة أهل السودان الغربي :

اختار أهل السودان الغربي مذهب الإمام مالك دون سواه من المذاهب الإسلامية الأخرى، حيث بزغ مذهب مالك مع بدايات انتشار الإسلام بفضل جهود دعاته سن المغاربة وانفرد أهله بالمذهب ، كما شكل هذا المذهب عمقاً ثقافياً في السودان الغربي مثلما شكل المذهب الحنفي عمقاً ثقافيا في الدولة العباسية و لذلك سوف أناقش الأسباب التي من أجلها اعتنق أهل السودان الغربي لمذهب مالك معللة أسباب اختيارهم لهذا المذهب وتوطنه عندهم .

ومن أسباب اعتناق أهل السودان الغربي للمذهب المالكي أن هذا المذهب يعُد اقرب المذاهب الفقهية لمزاج وطبيعة أهل السودان الغربي ، وذلك لسهولة

---

(١) أنظر الفصل التمهيدي .

المذهب ووضوحه ، فهو مذهب يعتمد على القرآن الكريم[١] ويأخذ بالنص الصريح الذي لا يقبل تأويلاً[٢] . ويأخذ من القرآن الكريم نصاً أو إشارة أو مفهوماً ، ويقدم القرآن على ما عداه من السنة[٣] ، ويوثق الحديث بالقرآن . كما تأتى السنة في المرتبة الثانية ، حيث يأخذ بالمتواتر منها ، وبخبر الآحاد[٤] مثلما يأخذ مالك بعمل أهل المدينة[٥] فيأخذ بفتاوى الصحابة وما أجمعوا عليه من فتاوى. كما يأخذ بالقياس ، والمصالح المرسلة ، والاستحسان ، ويأخذ بفقه سد الذرائع ، وقد قابل هذا المنهج ميلا وهوى لدي أهل السودان الغربي ، لأنه يتفق مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكلف أو تعقيد ، ولأن أهل السودان الغربي كأهل المغرب يميلون إلى البساطة ويفرون من النظريات المتطرفة والتأويلات البعيدة المتكلفة ، كما أن المذهب المالكي خلا من تداخل الآراء فبقى بعيدا عن الشوائب نقيا[٦] .

كما أن فقه الإمام مالك ينفر من الجدل ويستند إلى الحديث[٧] وإذا كان فقه الإمام مالك مرحلة متطورة إلا أن النقلة بالنسبة لأهل السودان الغربي لم تكن

---

(١) الإمام مالك : الموطأ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، من مقدمة المحقق ، ص .ذ.س.

(٢) ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين ، جـ٢، ص٢٢.

(٣) أبن العربي "أبو بكر بن عبد الله ": أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البجاوى ، صادر الجبل ، بيروت ،١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ص ١٥٦.

(٤) السبكى "تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين ": قاعدة في الجرح والتعديل ، تحقيق عبد الفتاح أبو غرة ، ط٢، دار الوعي ، حلب ، ١٩٣٧م ، ص ١٣٠.

(٥) الذهبي "شمس الدين محمد أبن أحمد بن عثمان الذهبي ": سير أعلام النبلاء ، ط٤، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، جـ٨ ، ص ٨١.

(٦) عمر الجيدى : محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ ، مطبعة النجاح ، بدون تاريخ ، ص ٣١.

(٧) الرازي : الجرح والتعديل ، جـ١، ص ١٨٤ . ، السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد السيوطي الشافعي ":طبقات الحفاظ ، تحقيق على محمد عمر ، مكتبة مصر ، ط١،

مفاجئة بل كانت متدرجة ، حيث أدت طبيعة أهل السودان الغربي إلى النفور من أي مذهب يقوم على الرأي ، ومن ثم وجدوا ضالتهم في المذهب المالكي الذي يمثل مدرسة المدينة[١] التي توافرت فيها أحاديث الرسول ﷺ بعيدا عن رأى فقيه أو قياس جديد .

وإذا علمنا من ناحية أخرى أن أهل السودان الغربي قد تميزوا بحساسية مفرطة تجاه مسألة السُنَة ، وبسعيهم إلى تتبع آثارها وإلى مقاومة أعدائها من أهل البدع و أهل الأهواء يمكن أن نجد تفسيرا لتفضيلهم لمذهب الإمام مالك[٢] .

وهناك خاصية أخرى في المذهب المالكي ربما جعلت أهل السودان الغربي يفضلونه على ماعداه وهى تلك التي تتعلق بأصوله فهو يتميز بكثرة الأصول ، وكثرة هذه الأصول بين أيدي المفتى تسمح له باختيار أصلحها وأقربها للعدل ، وأكثرها توفقاً مع الواقع الإفريقي . ولذلك كان المذهب المالكيْ يتميز بكثرة مراعاته للعرف[٣] .

كما ساهمت جهود فقهاء المالكية المغاربة الأوائل في نشر مذهب الإمام مالك بطريق غير مباشر ، فقد كانوا أسوة حسنة من خلال تمسكهم بأقوال مالك وتطبيقها علي أنفسهم وخاصة ما يتعلق منها بالبعد عن السلطان ، ومن ثم عدهم العامة نماذج يحتذي بها ، فأقبلوا على الأخذ بالمذهب حكاما ومحكومين بل صار الانتماء لهذا المذهب مصدر فخر ، فنجد منسا موسي(٧١٢-٧٣٧هـ/ ١٣١٢-١٣٣٧م) حاكم دولة مالي يفخر باعتناق هذا المذهب ويقول وهو في القاهرة : "أنا مالكي

١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، ص ٧٩.

(١) الذهبي : سير الإعلام ، جـ٨، ص ٨٣.

(٢) نجم الدين الهنتاتى : المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الـ٥/ الـ١١م ،تبر الزمان ، تونس، ٢٠٠٤، ص ٦٤.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

المذهب"[١] وهكذا اقبل ملوك وأهالي تلك البلاد على هذا المذهب والتزموا بفقهه في كافه العبادات والمعاملات[٢].

٣ـ دعم السلطة الحاكمة للمذهب المالكي :

ساعدت الظروف مجتمعة علي جعل مذهب الإمام مالك أمراً مقبولا من الوجهة السياسية لدى الحكام ، ويعد هذا العامل من أهم العوامل التي أدت إلى توطين المذهب المالكي في منطقة السودان الغربي . فقد أصبح المذهب المالكي بفضل جهود هؤلاء الحكام أحد المقومات الأساسية للدول التي قامت في تلك المنطقة ، فكان دور السلطة الحاكمة كبيراً في جمع أهالي السودان الغربي على مذهب واحد هو المذهب المالكي . ولذلك عملوا على نشره وأوجدوا له الحماية خوفاً من الفرق الأخرى سواء أكانت سياسية ، أو أعتقادية ، أو فرقاً شيعية ، أو خارجية ، وهذه الفرق لعبت دورا في تشكيل المغرب المجاور جغرافيا لبلاد السودان الغربي.

وقد عرضنا من قبل لدور بعض حكام دولة مالي الإسلامية في نشر هذا المذهب وذيوعه[٣] كما بينا دور بعض حكام دولة صُنغى الإسلامية في تحقيق السيادة الكاملة لهذا المذهب[٤].

وخلاصة القول إن المذهب المالكي انتصر في بلاد السودان الغربي بفضل ودعم السلطة الحاكمة لهذا المذهب ، إذ تولى فقهاء المالكية جميع خطط الدولة مثل خطة القضاء وخطة الفتوى وخطة الكتابة وغيرها من الخطط الدينية[٥] ، مما يعنى أن

---

(١) المقريزي : الذهب المسبوك ، ص ١٤٢.

(٢) حسين مراد : المذهب المالكي في السودان الغربي ، ص ٧٧.

(٣) عن دور حكام مالي في تحقيق ذيوع المذهب المالكي أنظر الفصل الأول من هذه الرسالة .

(٤) عن دور حكام صنغى في تحقيق السيادة للمذهب المالكي أنظر الفصل الأول من هذه الرسالة .

(٥) عمن تولى من فقهاء المذهب المالكي للخطط الدينية أنظر : الفصل الثالث من هذه الدراسة .

جميع الأحكام القضائية صارت وفق المذهب المالكي ومن ثم تم التمكين لهذا المذهب بين سكان تلك البلاد خاصة وأن تطبيق أحكامه يعين على هذا الأمر[١] .

العوامل الخارجية:

إذا كان للعوامل الداخلية التي عرضنا لها أنفاً أثر كبير في التزام أهالي السودان الغربي بالمذهب المالكي وتمسكهم به وتوطنه في بلادهم ، فإن للعوامل الخارجية والتي سنتعرض لها نفس الأثر ، وأهم تلك العوامل هي :

١ ـ ذيوع صيت الإمام مالك امام دار الهجرة :

كانت المدينة المنورة دار حديث وإسناد ، فكان أهل الفتوى بها من التابعين أمثال سعيد ابن المسيب المتوفى عام(٩٣هـ/ ٧١١م)[٢] وعروة بن الزبير المتوفى عام (٩٣هـ/ ٧١١م)[٣]، وخارجة بن يزيد المتوفى عام (١٠٣هـ/ ٧٢١م)[٤] ،وسليمان بن يسار المتوفى عام(١٠٧هـ/ ٧٢٥م)[٥] ، وعبد الله بن عتيبة بن مسعود المتوفى عام(٩٨هـ/ ٧١٦م)[٦] ، فكانوا هم الفقهاء الذين دارت عليهم الفتوى ، و نواة لعلم

(١) حسين مراد : المذهب المالكي في السودان الغربي ، ص ٧٨.

(٢) الرازي : مصدر سابق ، جـ٢، ص ٥٩.

(٣) أبو حجر "شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني المتوفي عام" ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م": تهذيب التهذيب ،حيدر أباد، الدكن ،١٦٢٥هـ/ ،جـ٧،ص ١٨.

(٤) خارجة بن يزيد : روى عن الواقدى ، وكان يقسم المواريث في المدينة ، أنظر شمس الدين الذهبي : تذكرة الحفاظ ، تحقيق السيد مصطفى ، دائرة المعارف ، حيدر أباد ، بدون تاريخ ، جـ١، ص ٨١ .

(٥) ابن خلكان " شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان الشافعي المتوفي عام" ٦٨هـ/ ١٢٨٢م" وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، دار الطباعة ، المديرية المصرية ، القاهرة ١٢٧٥هـ ، جـ٢، ص ٣٩٩. ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ، جـ٢، ص٥٧.

(٦) حدث عن عائشة وأبي هريرة ، وكان يعتنى بالحديث ، أنظر ابن خلكان :مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١١٥ ،السيوطي : طبقات الحفاظ ، مصدر سابق ، ص ٢٣١.

الفقه في المدينة المنورة . ثم أتى من بعدهم محمد بن المنكدر المتوفى عام (١٣٠هـ/ ٧٤٧م)[١] ، ومحمد بن شهاب الزهري المتوفى عام (١٢٤هـ/ ٧٤١م)[٢] ، إلى أن توجت المدينة المنورة بالإمام مالك بن أنس الذي ذاع صيته وفاق أقرانه ، والتف حوله طلاب العلم وكثر تلاميذه الذين انتشروا في الأقطار الإسلامية كافة[٣].

ولد الإمام مالك[٤] على أرجح الأقوال في عام(٩٣هـ / ٧١١م) وتوفى عام(١٧٩هـ / ٧٩٥م) وفى حداثته جود القرآن ، ولازم عبد الرحمن بن هرمز الملقب بالأعرج الذي توفى في عام (١١٧هـ/ ٧٣٠م)[٥] ثلاث عشرة سنة . ثم أخذ في طلب العلم بمختلف فنونه وفروعه ، وبذل الجهد في طلبه، فأخذ عن ابن شهاب الزهري الذي كان صاحب علم غزير تعلمه علي أيدي بعض التابعين خاصة سعيد بن المسيب

---

(١) حدث عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وعن سليمان بن أبى رافع ، وابن عمر ، وعنه حدث عمرو بن دينار والزهري وغيرهم ، وقال مالك فيه : "كان سيد القراء" ، أنظر ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ٩، ص ٤٧٣، الذهبي : تذكرة الحفاظ ، جـ١، ص ١١٤.

(٢) محمد بن شهاب الزهري : روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب ، وحدث عنه عطاء بن أبى رباح وعمر بن عبد العزيز ، وقال عنة البعض إنة أول من دون العلم أ أنظر أبن كثير " عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفي عام(٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) ، البداية والنهاية ، دار الفكر العربي ، بدون تاريخ ، جـ٩، ص٣٤، السيوطي : مصدر سابق ، ص ٤٢.

(٣) الأصبهانى"أبو نعيم أحمد بن عبد الله": حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ،دار الكتاب العربي ،بدون تاريخ ، جـ٦، ص٣١٦.

(٤) ذكر ابن الأثير : نسبة إلى ذي صبح واسمه الحرث بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعه ، وهو من عرب يعرب بن قحطان وأصبح ، صارت قبيلة ، والمشهور إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحى مولده سنه ٩٣هـ ، ووفاته ١٧٩م ، أنظر ابن الأثير "على بن محمد ت ٦٣٠هـ/ ١٦٣٣م" :اللباب في تهذيب الأنساب ، بيروت ، جـ١، ص ٦٩.

(٥) عبد الرحمن بن هرمز الملقب بالأعرج كان مولى للهاشميين ، وكان قارئا محدثاً تابعياً روى عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى، وروى عنه الزهري وأبو الزناد توفى سنه ١١٧هـ ، أنظر عياض : مصدر سابق ، جـ١، ص ١٠٢.

وغيره. كما درس على أيدي نافع مولى عبد الله ابن عمر ، واتجه إلى فقه الرأي بالمدينة ، فدرس على ربيعة بن عبد الرحمن الملقب (بربيعة الرأي)، ولم يكن الرأي عند ربيعة كالقياس المعروف في العراق ، ولكن الرأي في المدينة قوامه التوفيق بين النصوص المختلفة فكان يتتبع الرواة وينتقى الثقات منهم .

ثم جلس الإمام مالك للتدريس فذاع صيته في البلاد واشتهر ذكره ، وقد أوتى فراسة قوية في فهم الرجال ، وإدراك قوة عقولهم ولهذا قال : "إن هذا العلم دين ،فانظروا عمن تأخذون منه ، ولقد أدركت سبعين ممن يقولون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئا ، وأن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن"[١]. وقد بلغ الإمام مالك درجة كبيرة من العلم أهلته لان يكون أفقه الناس وأعلمهم بُسنة نبيهم ﷺ، كما كان مالك لا يفتى إلا بما هو واضح نير[٢] وكان يأخذ الرواية الموثوق بها . ولا يسارع في الفتوى ، وكان يبتعد عن الجدل وفى شأنه يقول : "ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني هل تراني موضعا لذلك سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك فقلت فلو نهياك قال كنت أنتهي لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه "[٣]. وكان مالك يقول :"ليس الجدل من الدين في شي "[٤] ، وعندما سئل عن الصلاة خلف أهل البدع وغيرهم قال : " لا أري أن يصلي خلفهم ".جمع الإمام مالك إلى علم الحديث علم الفقه حتى صار حجة فيهما معا ،

(١) الرازي : مصدر سابق ، جـ١، ص ١٢.

(٢) عياض : مصدر سابق ، جـ١،ص ١٠٢ ، السيوطي : تزيين الممالك ، مصدر سابق ، ص ١٥.

(٣) ابن الجوزى " جمال الدين أبو الفرج الجوزى " : صفوة الصفوة ، تحقيق محمود فخوري ، محمد رواسي ، دار المعرفة ،بيروت ، ط٤، ١٤٠٦هـ/ ١٩٦٨م، جـ٤، ص ٩٩.

(٤) المرجع السابق ، ٣٢، ٣٣.

وكتابه الموطأ[١] خير شاهد على ذلك وهو الكتاب الذي يُعد سنداً للمحدثين أمثال" البخاري"[٢] ،والنسائي[٣] وأبى داود[٤] ، وغيرهم.

عاش الإمام مالك حياة دينية علمية ، ولذلك قصده طلبة العلم من كل الآفاق في أواخر عهد أبى جعفر المنصور(١٣٦ـ١٥٨هـ/ ٧٥٤ـ٧٧٥م)[٥] وازدحموا عليه في خلافة الرشيد (١٧١ـ١٩٣هـ/ ٧٦٧ـ٨٠٩م) .[٦] ،وظل علي تلك الحال إلى يوم وفاته[٧].

---

(١) أشهر نسخ الموطأ نسخة يحيي بن يحيي بن كثير و سلاسى ، وقد رحل إلى الإمام مالك ونقل عنه الموطأ ، أنظر السيوطي : تزيين الممالك، مصدر سابق ، ص ١٤.

(٢) هو :"أبو عبد الله ابن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن برد زيه ، ولد ببخارى سنة (١٤٩هـ/ ٧٦٦م) واجه إلى علم الحديث وحفظ كتاب أبن المبارك و وكيع وقطع البلاد والأقطار طولا وعرضا طالبا للحديث ، وكان لا يجارى في حفظ الحديث سندا ومتنا ، ومن مؤلفاته قضايا الصحابة والتابعين والتاريخ الكبير ، وكتاب الضعفاء ، والمسند الكبير وكتاب الاشربة ، وكتاب الجامع الصحيح ، للمزيد أنظر أبن كثير "عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م" البداية والنهاية ، دار الفكر العربي ، بدون ، جـ١١ ، ص٢٤.

(٣) أبو عبد الرحمن بن شعيب بن على بن بحر بن سنان بن دينار٢١٥ـ٣٠٣هـ/ " عرف بالنسائي نسبة إلى نَسَا بلدة مشهورة بخراسان ، ويقال النسوى، وكان أحد أعلام الدين وأئمة الحديث ، إمام أهل عصره بين أصحاب الحديث في معرفة الجرح والتعديل ، أنظر ابن كثير: مصدر سابق ، جـ١١، ص١٢٣.

(٤) أبو داود هو "سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأسدى السجستاني(٢٠٢ـ٢٧٥هـ/ ٨١٧ـ٨٨٨م) رحل لطلب العلم ، وكتب عن أهل العراق والشام وخراسان ، وأخذ الحديث عن المشاهير ، أثنى العلماء عليه ووصف بالحفظ التام والعلم والوافر والفهم الثاقب في الحديث وغيرة مع دين وورع ، أنظر ابن كثير : مصدر سابق ، جـ١١، ص١٢٥.

(٥) السيد عبد العزيز سالم :دراسات في تاريخ العرب ، العصر العباسي الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، أسكندرية ، ١٩٩٣، ص٥٨.

(٦) المرجع السابق :ص ٦٩.

(٧) العسقلاني : مصدر سابق ، جـ١٠، ص ٥.

قال ابن عيينة :"مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه"[١] ، وقال الشافعي : "إن ذكر العلماء فمالك النجم "

وينقل القاضي عياض عن الإمام الشافعي قوله : " ما كتب الناس بعد القرآن شيئا أنفع من موطأ مالك "[٢] ، ويقول أيضا الإمام مالك عن كتابه : "إنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول الصحابة والتابعين ، ورأيي هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم "[٣] ولهذا اعتنى الناس بكتاب الموطأ ، فقد اعتنوا بتدريسه بالإضافة إلى شرحه والتعليق عليه فظهرت شروح عديدة علي أيدي الكثيرين من تلاميذ الإمام مالك المنتشرين في طول البلاد وعرضها[٤] .

فقد ظهر علماء وفقهاء من أبناء بلاد السودان الغربي أخذوا على عاتقهم نشر هذا المذهب في تلك البلاد ، دفعهم إلي هذا سيرة صاحبه وملاءمة مذهبه لسكان تلك البلاد . ومن أشهر فقهاء المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي أحمد بن سعيد المتوفى عام (٩٧٦هـ/ ١٥٦٩م) ويعد أحد أعلام المذهب المالكي ، ولذلك كان مدرسا للموطأ ، وقد جلس لتدريسه منذ عام (٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م) وحتى وفاته،

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الأئمة الأربعة حياتهم ومواقفهم وأرائهم ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ، ٢٠٠٤م ، ط١، ص ٢٧.

(٢) عياض : ترتيب المدارك ،جـ٢، ص٧٠٢.

(٣) المصدر السابق : ص ٧٢.

(٤) جملة الذين شرحوا المؤطأ " أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن بطليموس المتوفى في عام (٥١٥هـ/ ١١٢١م) تحت أسم المقتبس ، وعبد الملك حبيب صاحب "الواضحة" ، وابن عبد البرصاحب كتاب التمهيد على الموطأ ، وأبو وليد الباجي :صاحب الاستغناء ، أنظر ، ابن فرحون :الديباج المذهب ، مصدر سابق ، ص ١٧، وابن حجر :تهذيب التهذيب ، جـ١٠ ، ص٥، والسيوطي : مناقب مالك ، مصدر سابق ، ص ٥١.

وانتفع به جمع كبير من العلماء في مقدمتهم الشقيقان الفقيهان محمد بغيغ[١] و أحمد فقد قرا عليه الموطأ[٢].

كما كان الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت المتوفى عام (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) من علماء المذهب المالكي ، وكانت له رحلة إلى بلاد المشرق للحج التقى خلالها بأعلام مذهب مالك في كل من مكة والقاهرة وأخذ عنهم ، وحين عاد إلى بلاده جلس لتدريس كتاب الموطأ في مدينة تنبكت[٣] .

كما أسهم الفقيه العالم محمد بن محمود بن أبى بكر الونكرى التنبكتى (٩٣٠-١٠٠٢هـ / ١٥٢٤ -١٥٩٣م) في التمكين لهذا المذهب بتلك البلاد وهو من أعلام منطقة السودان الغربي فهو أستاذ وشيخ الفقيه أحمد بابا (٩٦٢-١٠٣٦/ ١٥٥٥-١٦٢٧م) ، و يذكر الأخير أنه لازمة أكثر من عشر سنين فقرأ عليه كل كتب الفقه المالكي ، ومنها الموطأ إذ يقول "ختمت عليه الموطأ قراءة تفهم[٤]" وهكذا تعلق فقهاء السودان الغربي وطلابه بالإمام مالك وكتابه الموطأ.

كما يرجع تعلق أهل السودان الغربي بمذهب الإمام مالك لان صاحبه سكن المدينة المنورة موطن دار الهجرة ولم يبرحها إلا حاجاً[٥] ، كما أن المدينة المنورة قد انطوت سياسياً عندما دخل (أبو حمزة الخارجي)[٦] المدينة وروع أهلها وقتل منهم

---

(١) هو ابن الفقيه محمود بن أبى بكر بغيغ ، وهو من أشهر شيوخ أحمد بابا وتلميذ لوالده أنظر أحمد بابا: مصدر سابق ، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) أحمد بابا: مصدر سابق ، ص ١٤٣،،١٤٢

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٤٢، ٤٣.

(٤) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص٦٠٢.

(٥) السيوطي :تزيين الممالك في مناقب مالك ، مصدر سابق ، ص ٤٢.

(٦) أبو حمزة الخارجي الآباضى هو :" المختار بن عبد الله بن مازن بن مُجاسر بن سُليمة بن مالك بن فَهْم " أمير مكة المكرمة والمدينة المنورة في خلافة مروان بن محمد سنة (١٣٠هـ/ ٧٤٧م) ،أصله من سلالة

كثيرين ، ومنذ ذلك الحين انزوت عن السلطان السياسي بسبب ما جرى لها من محن آخرها في عام(١٣٠هـ/ ٧٤٧م)[1].

سُليمة بن مالك بن فهم الأزدي الذي قتل والده مالك بن فَهْم ، وكان أول أمر أبي حمزة، أنه كان يوافي مكة كل سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد وإلى خلاف آل مروان، فلم يزل يختلف في كل سنة حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م أنظر محمد بن أحمد الحسيني الفاسي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٥٣ ، عارف أحمد عبد الغني: تاريخ أمراء المدينة المنورة ، مكتبة كنان ، لبنان ، بدون تاريخ ، ص ١٠٤، ١٠٥.

(١) أبو حمزة المعروف بالخارجي.تغلب على مكة في سنة تسع وعشرين ومائة، بعد الحج منها، وحضر الموقف بعرفة، وما شعر الناس إلا به وهو معهم فيها، وسأله أمير مكة إذ ذاك، عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك في المسالمة، حتى تنقضي أيام الحج، ففعل أبو حمزة، فلما كان النفرة الأولى، هرب فيه عبد الواحد إلى المدينة، فاستولى أبو حمزة على مكة، وتوجه منها إلى المدينة، في سنة ثلاثين،فلقيه بقديد، جيش أنفذه عبد الواحد من المدينة، فغلبهم أبو حمزة، وسار أبو حمزة إلى المدينة فقتل فيها، ثم جاءه ابن عطية السعدي من الشام، من قبل مروان بن محمد، فلقيهم وقتل أبو حمزة في جماعة من أصحابه في مكة، في سنة ثلاثين ومائة، وكان الذي قدم إلى مكة، عبد الله بن يحيي الكندي الأعور، الملقب طالب الحق، الثائر باليمن، في عشرة آلاف وقيل في سبعمائة، وطالب الحق: وفي هذه السنة: قدم أبو حمزة، ويلج بن عقبة الأزدي الخارجي من الحج، من قبل عبد الله بن يحيي الحضرمي طالب الحق محكماً مظهراً الخلاف على مروان بن محمد، فبينما الناس يعرفة، ما شعروا إلا وقد طلعت عليهم أعلام، وعمائم سود على رءوس الرماح،وهم سبعمائة، ففزع الناس حين رأوهم، وسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بخلافة مروان وآل مروان، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة، وطلب منهم الهدنة، فقالوا نحن بحجنا أضن، وعليه أشح، فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض، حتى ينفر الناس النفرة الأخيرة، فوقفوا بعرفة على حدة، ودفع بالناس عبد الواحد، فنزل بمنى في منزل السلطان، ونزل لأبي حمزة بقرن الثعالب، فأرسل عبد الواحد إلى أبي حمزة الخارجي، عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر وعبيد الله بن عمر، بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن، في رجال أمثالهم، فدخلوا على أبي حمزة وعليه إزار قطري غليظ، فتقدمهم إليه عبد الله بن الحسن، ومحمد بن عبد الله، فنسبهما فانتسبا له فعبس في وجوههما، وأظهر الكراهة لهما، ثم سأل عبد الله بن القاسم، وعبيد الله بن عمر، فانتسبا له، فهش إليهما وتبسم في وجوههما وقال: والله ما خرجنا إلا لنسير بسيرة أبويكما، فقال له عبد الله بن الحسن: والله ما خرجنا لتفضل بين آبائنا، ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة، وهذا ربيعة يخبرها. فلما ذكر له ربيعة نقض العهد، قال أبو حمزة: معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس به، والله لا أفعل ولو قطعت

رقبتي هذه، ولكن تنقضي المدنة بيننا وبينكم. فرجعوا إلى عبد الواحد فأخبروه، فلما كان يوم النفر الأول، نفر عبد الواحد فيه، وخلى مكة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال، فقال بعضهم في عبد الواحد :زار الحجيج عصابة قد خالفوا دين الإله ففر عبد الواحد ترك الحلائل والإمارة هارباً ومضى يخبط كالبعير الشارد ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة، فضرب على أهلها البعث، وزادهم في العطاء عشرة، واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فخرجوا، فلما كانوا بالحرة تلقتهم جزر منحورة، فمضوا .وفي عام(١٣٠هـ/ ٧٤٧م) كانت الوقعة التي كانت بقديد، بين أهل المدينة وأبي حمزة الخارجي، قد ذكرنا أن عبد الواحد بن سليمان، ضرب البعث على أهل المدينة، واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله فخرجوا، فلما كان بالحرة، لقيتهم جزر منحورة فتقدموا، فلما كانوا بالعقيق تعلق لواؤهم بسمرة، فانكسر الرمح فتشاءم الناس بالخروج، :وفيها خرج (قاله خليفة) عبد الله بن يحيي الأعور الكندي بحضر موت وتسمى بطالب الحق، فغلب على حضر موت واجتمع عليه الإباضية، ثم صار إلى صنعاء،وعليها القاسم بن عمر الثقفي، وهو في ثلاثين ألفاً، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزم القاسم، وكثر القتل في أصحابه، وسار عبد الله، وقد خندق القاسم على نفسه، فبيته في وضح الصبح، فهرب القاسم، وقتل أخوه الصلت وطائفة، ودخل عبد الله بن يحيي صنعاء، فأخذ الأموال وتقوى، وجهز إلى مكة عشرة آلاف ووليها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فكره قتالهم، فوقفوا بعرفات، ووقف الناس، ثم غلبوا على مكة، فنزح عبد الواحد إلى المدينة. وقال في أخبار سنة ثلاثين ومائة: وفيها قتل بقديد خلق من أهل المدينة، وذلك أن عبد الواحد لما غاب عن مكة، وتقهقر عن المدينة، كتب إلى المدينة يخبره بخذلان أهل مكة، فعزله ووجه جيشاً إلى المدينة، فسار من مكة المتغلب عليها من جهة عبد الله الأعور، وهو أبو حمزة، واستخلف على مكة أبرهة بن الصباح الحميري، ثم التقى أبو حمزة هو وأهل المدينة بقديد، في صفر من السنة نفسها ؛ فانهزم أهل المدينة،وقتل من قتل، ودخل أبو حمزة المدينة، فقتل حمزة ابن مصعب بن الزبير، وابنه عمارة، وابن أخيه مصعب بن عكاشة، وعتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير، وابنه عمرو، وصالح بن عبد الله بن عروة بن الزبير، وابن عمهم الحكم بن يحيي، والمنذر بن عبد الله بن المنذر بن الزبير، وسعيد بن محمد بن خالد بن الزبير، وابن لموسى بن خالد بن الزبير، وابن عمهم مهند. قال خليفة: قتل أربعون رجلاً من بني أسد بن عبد العزى، وقتل يومئذ أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، فأصيب يومئذ من قريش ثلاثمائة رجل ، ثم تقابلوا من أسفل مكة ومن أعلاها، ومن قبل وقتل أبو حمزة، وقتل خلق كثير من جيشه، أنظر محمد بن أحمد الحسيني الفاسي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٥٣ ، عارف أحمد عبد الغني: تاريخ أمراء المدينة المنورة ، مكتبة كنان ، لبنان ، بدون تاريخ ، ص ١٠٤، ١٠٥.

ومنذ ذلك الحين اعتزلت السياسة[١] وأصبحت موئلا للزهاد والعلماء الذين حولوها إلى حاضرة علمية ، يتوافد عليها طلاب العلم من أنحاء العالم الإسلامي[٢] لدراسة أحاديث رسول الله ، كما أن الإمام مالك جعل منها موئل علم ، وتوافد عليه طلاب العلم[٣] من بقاع مختلفة تنقل عنه فقهه .

ولذلك جذبت المدينة المنورة عدداً من أبناء السودان الغربي الذين أقاموا بها مجاورين للحرم المدني الشريف ، فجاور منهم أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت(٩٣٢-٩٩١هـ / ١٥٢٦-١٥٧٤م) التنبكتى المولد ، وهو عم العالم الشهير أحمد بابا وقد اتصف أبو بكر هذا بالخير والورع والزهد ، فحج وجاور بالمدينة المنورة ، ثم عاد إلى بلاده وأخذ أولاده ورجع مرة أخري إلى بلاد الحجاز وسكن المدينة المنورة وظل مجاورا بها حتى وفاته[٤] . وإذا كانت المصادر قد أفادت بمجاور واحد من أبناء السودان الغربي في المدينة المنورة فالمرجح أن هناك كثيرين قد جاوروا .

ويرجع لشخصية الإمام مالك توطين المذهب المالكي في السودان الغربي ، لأن الإمام مالكا كان هو الأعظم في تمييز البدعة عن السنة فيقول الإمام مالك: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، لأن الله تعالى يقول: "اليومَ أكملت لكم دينكم "»[٥].

---

(١) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بدون، ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ٩، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٣) محمد أبو زهرة : مالك حياته وعصره ،أراؤة وفكره ، ص ٧٥.

(٤) السعدي: مصدر سابق، ص ٤١.

(٥) سورة المائدة : الآية ٣.

٢ـ التأثير المغربي .

كان للعامل الجغرافي دوره في توجه المغاربة إلى بلاد السودان الغربي لنشر الإسلام، فقد تيسر الاتصال بينهم وبين أهالي تلك البلاد عبر الصحراء الكبرى بالرغم من بعد الشقة وأخطار الرحلة لا نعدام الحواجز الطبيعية[١] وإذا كان للعامل الجغرافي أثره في نشر الإسلام في تلك البلاد، فقد كان لهذا العامل أثره أيضا في نشر المذهب المالكي في تلك البلاد ، فمن المعروف تمسك أهل المغرب بالمذهب المالكي والعمل على نشره ، وهو أمر من الشهرة بمكان بحيث لا يحتاج إلى بيان[٢].

ويعتبر ترحيب أهل السودان الغربي بهذا المذهب مظهراً من مظاهر الائتلاف بين الجانبين ، ومن هنا رأينا المغرب يصير الوطن الأب في نفوس ومشاعر أهل السودان المالكيين[٣] .

ومن الجدير بالذكر أن الصلات بين بلاد المغرب وبين السودان الغربي كانت ضاربة بجذورها في أعماق الزمن ، حيث كان الحضور المغربي في بلاد السودان الغربي قديما . ففي دولة غانة الوثنية كانت الوفود المغربية موجودة ومشاركة في إدارة تلك الدولة وخاصة الفقهاء الذين تمتعوا بوضع اجتماعي ممتاز، فهم المقربون للملك الذي اتخذ منهم عدداً كبيراً لإدارة دولته[٤] ، وكان ملك غانة وموظفوه يكنون لهم الاحترام والتقدير ، وكان هذا قبل أن يصبح الإسلام الدين الرسمي لها .

---

(١) محمد أمين المؤدب: جوانب من الصلات الثقافية بين المغرب وغرب أفريقيا، ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٩٩م، ط١، ص ٥٨٨.

(٢) الونشريسي : مصدر سابق ، جـ٢، ص ١٦٩ .

(٣) عباس الجراري: الموحدون ثورة سياسية ومذهبية ، مجلة المناهل المغربية ، العدد الأول ١٩٧٤، ص١٠٥.

(٤) وكان ببلاط ملك غانة موظفون ذوو درجات عالية من المسلمين مثل المترجمين ، ولما كانت مصالح

وقد أدى وجود تلك العناصر المغربية بصفة دائمة في غانة إلى تقوية الروابط بين سكان غانة والمغاربة الذين توافدوا من جهات المغرب كافة[١] ، وكان ذلك من أجل خدمة مصالحهم الاقتصادية المشتركة من ناحية ، بالإضافة إلى استفادة السودانيين من تلك العناصر المغربية في شتى المجالات المتعددة من ناحية أخري[٢] .

واستمر توافد المغاربة على بلاد السودان الغربي بوجه عام وغانة بوجه خاص ، تحديداً في فترة سيطرة المرابطين على المغرب الأقصى إذ استمرت الاتصالات الأهلية والدبلوماسية بين المرابطين ودولة غانة ، يدل علي ذلك المراسلات بين يوسف بن تاشفين وملك غانة التي ذكرها صاحب الاستبصار[٣] . وأسهمت هذه الاتصالات في استقرار أعداد كبيرة من المغاربة من أهل العلم والفقهاء وقراء القرآن الذين أصبحوا منتشرين في السودان الغربي كله ، وقد ذكر الزهري عن أهل جناوة

مملكة غانة الحيوية ترتبط شمالا بالمغرب ، كان أغلب هؤلاء المترجمين مغاربة ،حيث يقومون بالاستقبال والترجمة للوفود التي تأتى للملك ، أنظر البكري : مصدر سابق ، ص ١٧٥.

(١) الدول المستقلة بدأت في الظهور من منتصف القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، فظهرت دولة بني مدرار في عام (١٤٠ هـ/ ٧٥٧م) والدولة الرستمية في عام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م) دولة الادارسة العلويين في أقصى المغرب سنة (١٧٢هـ/ ٧٨٨م) وكانت فاس عاصمتهم وحاضرتهم ، كما ظهر في الريف بنو الحمريون ، وفى أفريقية ظهر بنو الأغلب في سنة (١٨٤هـ/ ٨٠٠م) ، وشيعتهم من بني تميم ، وفى نهاية القرن الثاني الهجري / التاسع الميلادي وتحديدا في سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) ثم ورث الفاطميون هذه الممالك المستقلة وكان مناصروهم من بني حمدون بالمسيلة، أنظر مصطفى أبو ضيف عمر : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري المرابطين والموحدين وبني مرين ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م ، ص ٢٦٣، ٢٧٣، محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الإفريقية ، نشر معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ، ١٩٧٨م، ص٦٤، ٦٥، ٦٦.

(٢) البكري : مصدر سابق ، ص ١٧٥.

(٣) مجهول : (كان حيا في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر للشئون الثقافية العامة ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص ٢١٩، حسين مراد : الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي ، ص ٣٩٠.

ويقصد بهم أهل غانة[١] عند القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أن "عندهم العلماء والفقهاء والقراء[٢] "

كما أن دولة مالي حين أسلم ملكها كان يوجد في دولته بعض دعاة المغرب وفقهائه ، ويتضح ذلك من قصة إسلامه[٣] أما منطقة التكرور فقد انتشر فيها الإسلام أيضا بفضل جهود المغاربة[٤] .

وعلى أية حال يؤرخ لبداية الاتصالات بين بلاد المغرب و بلاد السودان الغربي بالقرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي[٥] ، وقد أثمرت هذه الاتصالات خلال القرون التالية بأن أصبح الإسلام دينا رسميا للوحدات السياسية كافة في تلك البلاد خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.كما استمر تأثير مالكية المغرب في السودان الغربي خلال القرون التالية .

كما انتشر الإسلام في مملكة جني بفضل جهود المغاربة وكان بها عدد كبير من الفقهاء "حوالي أربعة ألاف ومائتين" ورغم أن هذا العدد مبالغ فيه ،إلا أنه لم يكن جميع أهل جني قد أسلموا بعد ، وأسلموا جميعا في نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . الذي شهد مجيء أعداد كبيرة من الفقهاء وخاصة المغاربة منهم إلى بلاد السودان الغربي .

---

(١) يقصد دولة غانة ، فقد عرفهم الزهري قائلا :"وأهل جناوة الذين حاضرتهم غانة " ، أنظر الزهري " محمد بن أبي بكر الأندلسي كان حيا في سنه ٥٤١ـ٥٥٦هـ/ ١١٤٦ـ١١٦٠م " كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد صادق الحاج ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٢٥ ، أحمد الشكرى : مرجع سابق ، ص٩٨ ، ٩٩.

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) البكري : مصدر سابق ، ص ١٧٥.

(٤) السعدي: مصدر سابق، ص ١٢، ١٣.

(٥) البكري : مصدر سابق ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

وقد استمر تدفق فقهاء بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي زمن دوله مالي الإسلامية (٦٢٨-٨٣٤هـ/ ١٢٣٠-١٤٣٠م) بفضل تشجيع سلاطينها و خاصة منسا موسى (٧١٢-٧٣٧هـ/ ١٣١٢-١٣٣٧م) الذي أرسل يطلب الفقهاء من المغرب والمشرق والأندلس، وعمل على استقدامهم إلى بلاده[١] . يشهد على ذلك استقدام منسا موسى للفقيه عبد الله البلبالى من مدينة فاس ، و قد ولاه منسا إمامة المسجد الجامع بتنبكت[٢] . كما وفد زمن منسا موسى أيضا الفقيه أبو العباس الدكالي الذي تولى منصب القضاء في هذه الدولة[٣].

وقد استمر توافد المغاربة في عهد منسا سليمان(٧٤١-٧٦١هـ/ ١٣٤١-١٣٦٠م) الذي أحسن استقبالهم ، وقد شاهد ابن بطوطة العديد منهم أثناء رحلته إلى مالي في عهد هذا المنسا . فالتقي في مدينة ولاتة بأحد فقهاء مدينة سلا[٤] ويدعى الفقيه ابن بداء[٥] ، كما التقي ابن بطوطة أيضا بقاضي مدينة ولاته وهو الفقيه المغربي محمد بن عبد الله بن ينومر ، كما التقى بأخيه يحيى وكان فقيهاً ومدرساً هناك[٦]. كما التقي ابن بطوطة بشيخ المغاربة في مدينة تكده[٧] ويدعى الفقيه إبراهيم بن إسحاق بالإضافة

---

(١) الجزيرى "عبد القادر بن محمد، أنتهي من تأليفه ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م": درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطرق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٤هـ ص ٦٦٧.

(٢) أبو بكر إسماعيل: الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، مكتبة التوبة، الرياض، ١٩٧٧م، ط١، ص ٣٣.

(٣) ابن بطوطة : : رحلته ، مصدر سابق ، ص٦٦٧.

(٤) سلا مدينة تقع بالمغرب الأقصى على ساحل المحيط الاطلنطى ، منها إلى مدينة مراكش عشر مراحل ، لها نهر كبير و في غرب هذا النهر أختط عبد المؤمن بن على مدينة سماها المهدية ، أنظر ياقوت الحموي: مصدر سابق،ص ٢٣١.

(٥) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٦١.

(٦) المصدر السابق والصفحة : ص ٦٦١.

(٧) تقع مدينة تكدا على بعد ١٨٠ كيلومتر ألي الشمال من مدينة أغاديس الحالية ، المصدر السابق ، ص ٦٧٩.

إلى الخطيب محمد ، والمدرس الفقيه أبى حفص المسوفى[١] والشيخ التلمسانى الذي يعلم الناس القرآن الكريم والفقه[٢]، والشيخ المزورى المراكشي الذي قابله أيضاً[٣] ، والمقرئ عبد الواحد بشمعة[٤] والشيخ الموصلي[٥] وسعيد بن على الجزولى[٦] .

ولكثرة الوجود المغربي في دولة مالي وجد ابن بطوطة حياً من أحياء العاصمة خاصاً بهم ويدعى "محلة البيضان" ومن اللافت للنظر أن أهل تلك البلاد يطلقون على المالكيين من البيض لقب " تورى"[٧].وكان كبير المغاربة في العاصمة محمد بن الفقيه الجزولى قد التقى به ابن بطوطة كما التقي بصهره الفقيه عبد الواحد .

أما مدينة "جاو" عاصمة دولة صُنغى فقد امتد إليها المد المغربي بحيث كان وجودهم فيها كبيراً ، يشهد على ذلك وجود مسجد في هذه المدينة يدعى مسجد البيضان ،وإمامه الفقيه محمد الفيلالى ، وكان هناك أيضا الفقيه محمد بن عمر المكناسى ، والفقيه محمد الوجدى التازى أي من مدينة تازة المغربية[٨] .ولم يقتصر الحضور المغربي في مدينة جاو على الفقهاء فقط بل امتد ليشمل الأسر والبيوتات

(١) المصدر السابق: ص ٦٧٩.

(٢) حسين مراد: المذهب المالكي في السودان الغربي ، ص٨٢.

(٣) ابن بطوطة :مصدر سابق ، ص٦٦٥.

(٤) نفس المصدر ، ص٦٦٤.

(٥) وهو من علماء بجاية أنظر ، الغبرينى " العباس أحمد ، المتوفى(٧٠٤هـ/ ١٣٢٦م) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ، الوطنية للنشر والتوزيع ، وطبعة المطبعة الثقافية الجزائر ، ١٣٢٨هـ ص ١٦٦، ١٦٧.

(٦) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧٧.

(٧) المصدر السابق: ص ٦٦٤.

(٨) المصدر السابق ، ص ٦٧٩.

الشريفة ، ومنها انتقال بعض أفراد أسرة الأشراف السعدية سلاطين المغرب الأقصى للإقامة في جاو وبالقرب منها[١] .

كما قدم إلى مدينة تنبكت الشيخ يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن التغلبى التادلسى[٢] الشريف المتوفى عام (٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م) والذي بني بها مسجداً سمى باسمه "مسجد سيدي يحيى" . وكان هذا الشيخ إماماً بلغ الغاية في العلم والصلاح ، وكان يعلم الناس في مسجده[٣] ويدرس لهم بعض كتب الفقه المالكي ، ومن هذه الكتب الفقهية التي كان يقوم بتدريسها كتاب" تهذيب البرادعى"[٤] .

كما سكن مدينة تنبكت أيضا وغيرها من مدن السودان الغربي عائلات مغربية اشتهرت بالعلم يؤكد ذلك ماذكره السعدي : " أخيار العلماء من ورقلة[٥] وبعض المدن الاخرى مثل فزان[٦] و غدامس[٧] و

---

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٤٩.

(٢) مجهول :مخطوطة نسب سيدي يحيي ، مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية (تنبكت) رقم ٢٤٠.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٠ ، ٥١، الاروانى : مصدر سابق ، ص ٧٩، ٨٠.

(٤) السعدي : مصدر سابق ،ص ٤٧.

(٥) ورقلة : تقع في الجنوب الشرقي للجزائر ، و أتت تسمية ورقلة من السكان الأوائل بها وهم بنو الوركلان ، أو بنو الورجلان بحيث اشتق اسم ورقلة من ذلك ، ويقول البكري : " فإن أردت من تادمكة الى القيروان فإنك تسير في الصحراء خمسين يوما إلى وارجلان ، وهى سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى أغرم أن يكامن ، أي حصن العهود ، أنظر البكري : مصدر سابق ، ص ٣٧١.

(٦) فزان : " أسم يطلق على المنطقة الواقعة بين طرابلس شمالا وتبستى جنوبا ، وهى منطقة تتناثر فيها الواحات التي تعد امتدادا لواحات القسم الأوسط من الصحراء الكبرى ، وأن من مدن فزان مدينة جرمه ومدينة تساوه التي تسمى جرمه الصغرى ، أنظر الحميري : الروض المعطار ، ص ٤٤٠.

(٧)غدامس :"مدينة بالمغرب ثم فى جنوبيه ، ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافون ، تدبغ فها الجلود الغدامسية ، وهى من أجود أنواع الدباغ ، لاشي فوقها في الجودة ، وفى وسطها عين أزلية ، وعليها أثر بنيان رومي ، وأهلها بربر يقال لهم : تناوريه " ، أنظر البكري : المسالك والممالك ، جـ٢، هامش ص ٢٢٥، وقد عرفت منطقة درعه استقرار منذ القديم ، وقامت بدور كبير في التواصل بين مختلف الجهات ،

توات[١] و درعة[٢] و تافيلالت[٣] و فاس[٤] ----------=

لوقوعها على طريق القوافل التجارية الرابطة بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، وكانت بها مراكز تنطلق منها وتنتهي أليها تلك القوافل ، طيلة العصر الوسيط والحديث ، أنظر الادريسى : " الشريف الادريسى السبتى المتوفى عام ٤٩٣-٥٦٠هـ/ ١١٠٠-١١٦٥م " تحقيق الوافي نوحي ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤن الإسلامية ، المملكة المغربية ، ط١، ٢٠٠٧م ، ص٢٧٦.

(١) توات هي صحراء في اعلي المغرب ذات نخيل وأشجار وعيون بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يوما .....وعدد قصور في القرن الحادي عشرة قصر أوسطها بوده وتيمي وتمنطيط واختلف المؤرخون في تسمية توات فهناك روايات تتعلق بتحديد ماهية التسمية ومن هذه الروايات رواية عبد الرحمن السعدي الذي قال إن سلطان مالي كنكان موسى كان ذاهبا إلى الحج برفقة جماعة كبيرة من أهل بلده فلما وصلوا هذه الديار أصيب البعض منهم بمرض معروف عندهم باسم توات فانتظرهم السلطان ومن معه علهم يشفون بسرعة من مرضهم لكن ابطأ بهم المرض وصار الحال إلى ما لا يرضون فتركهم السلطان في هذه الأرض وسار بمن معه وهؤلاء الذين بقوا وجدوا هذه الأرض مخضرة وذات بساتين وواحات فمكثوا بها واستقروا وصاروا يسمونها بالمرض الذي أصيبوا به وهو توات ،عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان ، ص ٧.

(٢) درعة : "من درعة إلى سجلماسة مسيرة أربعة أيام ، وعلى وادي درعة شجر كثير وثمار عظيمة وهناك شجر التاكوت الذي يشبهه شجر الطرفاء ، وبهذا التاكوت تدبغ الجلود الغدامسية ، وعلى وادي درعة سوق فى كل يوم من أيام الجمعة في مواضع مختلفة منه معلومة ، وربما كان عليه في اليوم الواحد سوقان ، وذلك لبعد مسافته وكثرة الناس عليه ، وطول عمارته المتصلة سبعة أيام "، أنظر البكري ، مصدر سابق ، ص ٣٣٨.

(٣) تافيلالت : هي سجلماسة والتي تعرف الان باسم تافيلات ، وتقع سجلماسة فى شمال وادي درعة ، على طرف الصحراء جنوبا في أخر بلاد العمران ، وتليها المفازة الكبرى التي تؤدى إلى بلاد غانة من بلاد السودان وكان يسكن تلك المفازة قبائل الملثمين من صنهاجة من مسوفة ولمتونة ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ،جـ٢، نقلا عن صاحب كتاب الاستبصار ، ص ٤٠٩.

(٤) فاس : وهى مدينة بالمغرب الأقصى وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا فأسا في موضع الحفر ، وتم بناء مدينة فاس في عام ١٩٢هـ/ وهي مدينتان يشقهما نهر ، الأولى فاس القديمة والمياه تجرى بأسواقها وحماماتها ، حتى يقال إنه ليس بالمشرق ولا بالمغرب مدينة تضاهيها في ذلك ، إلا أن أرضها ذات ارتفاع وانخفاض ، وفيها عدة عيون ، وقال أبو عبد الله العسلي : "عدتها ثلاثمائة وستون عينا ، وقال أبن سعيد : "لم أرقط حمامات في داخلها عين تنبع إلا في فاس ، وقال : " وهى أكثر مياها من دمشق " وقال : " وفاس هي مدينتان : أحداهما بناها إدريس بن عبد الله ، أحد خلفاء

والسوس[١] " إلى غير ذلك من البلاد[٢] والعائلات المقيمة فيها . ومن هذه العائلات عائلة تعلى و على رأسها محمد ابن الصديق الذي أصبح إماماً للمسجد الكبير[٣] ، وعائلة الخضر الذين كان جدهم كاتبا عند سني علي[٤] .

وتعددت العائلات المغربية التي سكنت مدينة تنبكت ، ومنها عائلة أبو القاسم التواتي المتوفى عام (٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م) والذي كان له حلقة يدرس فيها للأطفال بجوار مسجده[٥] الذي تولى فيه الإمامة . وقد تولى الإمامة من بعده في هذا المسجد السيد منصور الفزاني وهو من عائلة الفزاني[٦] ، وهناك أيضاً عائلة الفلالي و يأتي على رأسها الإمام الفقيه محمد بن أبي بكر بن أكداد الفلالي المتوفى عام (٩٨٩هـ/ ١٥٨١م) والذي تولى الإمامة في الجامع الكبير[٧] في تنبكت وجني وجاو. وهناك عائلات آخري منها عائلة الهوارى[٨] في جني ، وعائلة الدليمى من

الادارسة بالمغرب ، وتعرف بعدوه الأندلس ، والأخرى بنيت بعدها تعرف بعدوه القرويين ، وقال في الروض المعطار :" وكان بناء عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبناء عدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وعدوة القرويين أكثر عيونا وبساتين وأشجار من عدوة الأندلسيين ، ورجال عدوة الأندلسيين أشجع ورجال عدوة القرويين أجمل ، والثانية فاس الجديدة ، وهي ثلاث مدن بناها أباء ملوكها القائمين بها الآن حين ملكوا المغرب الأقصى ولما نزلوا بنوا ثلاث مدن على ضفة النهر الغربية ، أنظر ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١) السوس : "وهى مدينة من أقصى المغرب في الإقليم الثاني ، قال أبن سعيد : "حيث الطول ثمان درج والعرض ست وعشرون دقيقة ، وهى على طرف من البر داخل في البحر أربعين ميلا ، وفى جانبها الشمالي نهر يأتي من الشرق من جبل لمطة ، أنظر القلقشندى : مصدر سابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) السعدي : تاريخ السودان ، ص ٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ص٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٨ ، الاروانى : مصدر سابق ، ص ١٢٤ .

(٥) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٨ .

(٦) الاروانى : مصدر سابق ، ص ١٢٤ .

(٧) نفس المصدر والصفحة .

(٨) الولاتى : "أبو عبد الله الطالب محمد بن أبى بكر الصديق البرتلى الولاتى " ، فتح الشكور في معرفة

مراكش[١] وعائلة الكابرى وجدها محمد الذي جاء من المغرب للدراسة فى مدينة تنبكت وتولى القضاء في هذه المدينة[٢]. وعائلة البلبالى ويأتي على رأسها الفقيه الحافظ مخلوف بن على بن صالح البلبالى المتوفى عام (٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م) والذي انتشر علمه وفقهه في مدينة تنبكت فقد درس بها ، وكانت له نوازل وأبحاث مع الفقيه العاقب الأنصمنى ، ثم غادر تنبكت إلى مراكش وقام بالتدريس فيها ثم عاد إلى وطنه الأصلي وهو واحة بالقرب من توات وبها توفى[٣].

كما وفد الإمام الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى[٤] المتوفى عام (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣) ويعد من أشهر المغاربة الذين وفدوا إلى تلك البلاد وخاصة مدينة جاو وقد انتفعت تلك البلاد بفقهه وعلمه . دخل الإمام المغيلى بلدة تكدة ، واجتمع بحكامها ومكث بين ظهراني أهلها مدة من الزمن ، ونشر العلم بين أهلها ، وأقرأ أهلها وانتفعوا به ، حيث كان يمارس فيها التدريس والوعظ ، وأفاد أهل تلك

أعيان علماء التكرور ، تحقيق محمد إبراهيم الكتانى ، محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ١٠٨.

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٠٨.

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٩، الولاتى : مصدر سابق ، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٤) المغيلى :"هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى " ، من أعلام القرن التاسع والعاشر الهجريين / الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، ولد بمدينة تلمسان " التي تقع في الجزائر بينها وبين مدينة وهران المشهورة حوالي ١٥٠ كيلو متر ، وقيل إنه ولد فى مدينة فاس المغربية و المغيليون من الأسر العلمية القديمة بسلا ، أنظر أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامه ،منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،طرابلس ١٩٨٩م ، ص ٥٧٦، ٥٧٧ ، ٥٧٨.

البلاد كثيراً[١] ومن الذين شهدوا دروسه في تكدة الفقيه محمد بن أحمد بن محمد التازختي المعروف بأيد أحمد[٢].

وممن أخذ الفقه عن الإمام المغيلي الفقيه عبد الله الأنصمنى المتوفى عام (٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م) والذي أصبح فقيهاً ومن أعيان مذهب الإمام مالك[٣]. ثم رحل الإمام المغيلي إلى مدينة جاو واجتمع بسلطانها أسكيا محمد ووضع له مؤلفاً إجابة عن مسائل عرضت عليه[٤]، فأزال الشوائب التي علقت بالدين، وصحح الكثير من أموره التي كانت مغلوطة في أذهان العامة، ووجهه أسكيا محمد للعقيدة الصحيحة[٥].

وهكذا كان للفقهاء المالكية وللعائلات المغربية دور بارز في استقرار ودعم المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي، ولم يقتصر الأمر على تأثير مالكية المغاربة فقط بل سنجد دوراً كبيراً لمالكية المشرق خلال رحلات الحج والرحلات العلمية، وخاصة فقهاء مالكية مصر الذين كان لهم نفس الدور والتأثير في دعم مذهب الإمام مالك.

٣ـ رحلات الحج والرحلات العلمية.

دأب مسلمو السودان الغربي على تنظيم رحلات جماعية للخروج إلى الحجاز من أجل أداء مناسك الحج، وزيارة الروضة الشريفة، غير مكترثين بالمعوقات والصعاب. وتعد أهم ظاهرة طبعت هذه الرحلات هي الإشراف الفعلي للملوك

---

(١) أحمد بابا: مصدر سابق، ص٥٧٨.

(٢) كلمة أيد معناها (ابن) في لغتهم، وهو من بلدة قريبة من والاتة المشهورة، السعدي مصدر سابق، ص٣٩.

(٣) أحمد بابا: مصدر سابق، ص٥٧٨، السعدي مصدر سابق، ص ٤١.

(٤) أحمد بابا: مصدر سابق ص٥٧٧.

(٥) أبو بكر إسماعيل ميقا: الحركة العلمية والثقافية، ١٧٠.

وأمراء الحواضر الإسلامية السودانية عليها ، بالإضافة إلى رعاية شؤون الحجاج مادياً وأدبياً . وهكذا أصبح خروج المسلمين من السودان الغربي ملوكاً وجماعات ، إلى الحج واتصالهم بالشعوب الإسلامية المختلفة في المغرب ومصر والحجاز تأكيدا لروح الأخوة الإسلامية التي فرضها الإسلام[1].ومن الواضح أن المغرب كان محور التقاء هذه الوفود من حجيج أهل السودان الغربي حيث ينضمون إلى وفود الحجاج المغاربة ، ثم يتجهون في ركب واحد صوب مصر ، ويخرجون مع ركب الحجاج المصريين إلى أرض الحجاز، مما أتاح لهم الفرصة للاحتكاك والتفاعل ، وبخاصة بينهم و بين رواد المعرفة وأهل العلم في تلك البلاد .

وقد ارتبطت رحلة الحج بالرحلة في طلب العلم حيث أصبحت الرحلتان لديهم وجهين لعملة واحدة ، ومن ثم كانت هذه الرحلة من المسائل المحمودة في السودان الغربي عموما باعتبارها عاملا مهماً في توثيق الصلات والروابط مع أهل المغرب خاصة والمشرق على وجه العموم . وقد تضاعفت سبل الاتصال عن طريق الرحلة في طلب العلم والرحلة للحج إلى المشرق الإسلامي مما أوجد تلاحماً ودعما للروابط الثقافية بين أهالي و فقهاء السودان الغربي ونظرائهم من حواضر المشرق والمغرب الإسلاميين ، وقد نتج عن هذه الرحلات تبادل المعارف والآراء في مختلف العلوم العقلية و النقلية وعلى أية حال فقد أعانت رحلة الحج فقهاء السودان الغربي علي الاتصال بعلماء المغرب والمشرق كما أتاحت لهم الاطلاع على الكتب والمصنفات في شتى ألوان المعارف الإسلامية ودراستها ، فكانت الحركة مستمرة بين السودان الغربي من جهة ، و فاس ومصر والحجاز من جهة أخرى للاستزادة من العلوم

(١) شوقي عطا الله الجمل : الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا سماتها ودور المغرب فيها ، مجلة المناهل المغربية ،العدد السابع ، السنة الثالثة ، ١٩٧٦، ص١٣٤.

الدينية والحصول على الإجازة من العلماء بعد التعمق في دراسة الفقه وأصوله وسائر العلوم الدينية وخاصة الفقه المالكي[١].

وقد كانت القاهرة معبرا مهماً لفقهاء السودان الغربي في أثناء رحلتهم لتأدية فريضة الحج ، وكان لفقهاء المالكية في مصر فضل في توطين المذهب .وهكذا كانت رحلة السودانيين دائمة إلى مصر وهم في طريقهم إلى الحجاز ، و بذلك كانت القاهرة محطة مهمة لأبناء السودان الغربي[٢] .

ومن أبرز المراكز العلمية في القاهرة والتي كان يتوافد عليها أبناء السودان الغربي وهم في طريقهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مدرسة ابن رشيق و التي بناها في مدينة الفسطاط القاضي و الفقيه المالكي المصري علم الدين بن رشيق عام(٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) والذي تولى تدريس المذهب المالكي بها. وأصبحت هذه المدرسة مركزا لتدريس المذهب المالكي حيث بلغت في هذا الأمر شهرة عظيمة . وكان بناء هذه المدرسة من تبرعات أبناء بلاد السودان الغربي لتكون مركزا لإقامة الوافدين إلى مصر من تلك البلاد[٣] .

---

(١) رشيد الزواوي : التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي ، مجلة الحضارة الإسلامية ، العدد ١ ، ١٩٩٣ ، ص ٣٢٤، ٣٣٩.

(٢) تمتعت القاهرة بأهمية كبيرة لحجاج دولتي مالي وُصنغى، حيث مثلت لهم أهم محطة تجارية وعلمية وثقافية ، وذلك لوقوعها على طريق حج هاتين الدولتين ، ومنتهي طرق الصحراء للذهاب إلى الأراضي المقدسة عن طريق القاهرة ، أنظر بن خلدون : مصدر سابق ، ص ١٨٩٥، إبراهيم على يوسف الشامي : الحج وأثره الحضاري في دولتي مالي وُصنغى (٦٣٦-١٠٠٠هـ/ ١٢٣٨/ ١٥٩١م) ، جامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م ، جـ٢ ، ص١٢٣.

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، طـ١٩٨٧م ، جـ٢، ص ٣٦٥.

كما كان للأزهر الشريف دور ومكانة كبيرة في نفوس أبناء السودان الغربي الذين أرادوا أن ينهلوا من معين فقهاء المالكية به ، وقد قام الأزهر الشريف باستقبال الكثير من هؤلاء الوافدين الذين تزايدت أعدادهم ، ولذلك أسس لهم رواقٌ خاص بهم في الأزهر عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) عرف برواق التكارورة[١]. وقد ساعد الأزهر على توطين المذهب المالكي بين أبناء هذه البلاد ، وهكذا كان الأزهر عنصرا فعالاً وإيجابياً في دعم الصلات الثقافية بين مصر و تلك البلاد[٢].

وتذكر لنا كتب التاريخ والتراجم أسماء بعض ممن وفد إلى مصر من بلاد السودان الغربي وأقاموا للدراسة بها ونهلوا من فقهاء المالكية تعاليم هذا المذهب ومن هؤلاء ، فالح ابن عثمان التكرورى المتوفى عام (٦٩٥هـ/ ١٢٩٣م)[٣] ، وكذلك الشيخ عثمان فقيه أهل غانة وكبيرهم علما ودينا وشهرة ، وكان قد جاء إلى مصر عام(٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م)، وكان قد التقى بابن خلدون الذي نقل عنه أخبار تلك البلاد في كتابه العبر[٤] .

كما وفد إلى القاهرة ركب حجاج السودان الغربي بصحبة السلطان منسا موسى الذي جاء إلى مصر عام(٧٢٤هـ/ ١٣٣٤م)[٥] وتشير المصادر إلى أن هذا الوفد حَظِي بكثير من الإكبار والإجلال وتروي أنه ضم أكثر من أربعة عشر آلف حاج[٦] وقد جاء هذا الوفد إلى أرض مصر في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد

(١) القلقشندى : مصدر سابق ، جـ٥، ص ٢٨١، المقريزي : مصدر سابق ، جـ٢، ص ٣٦٥.

(٢) حسين مراد : المذهب المالكي في السودان الغربي ، ص ٨٤.

(٣) المقريزى : المواعظ ، جـ٢، ص ٣٦٢، ٣٦٤.

(٤) ابن خلدون : تاريخه ، جـ٢ ، ص١٨٩٤.

(٥) المقريزي " تقي الدين أحمد بن على المتوفى عام "٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م" : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مابين عام ١٩٣٦-١٩٥٨م ، جـ٢، ص ٢٥٥.

(٦) المقريزي : الذهب المسبوك ، ص ١١٢.

بن قلاوون (٦٩٣ـ ٧٤١هـ / ١٢٩٣ ـ ١٣٤١م) . وقد كان منسا موسى ومن معه على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كما أنه كان كثير الحضور لمجالس العلم الخاصة بفقهاء المالكية وكان هو ومن معه في غاية السكينة والوقار[١] .

وقد اهتم منسا موسى ومن معه بتحصيل الفقه المالكي على أيدي فقهاء مصر المالكيين مثل القاضي المالكي شرف الدين أبي الروح عيسى الزواوى المتوفى عام (٧٤٣هـ / ١٣٤٧م) ، والذي كانت له مكانة كبيرة في الفقه المالكي جعلته إماماً لهذا المذهب بمصر ، ولذلك انتهت إليه رئاسة الفتوى على مذهب الإمام مالك بالديار المصرية[٢] .

كما جلس منسا موسي ومن معه أيضا إلى الفقيه محمد بن أحمد بن ثعلب المصري المشهور بابن كشتغدى وهو قاضي ومدرس المالكية في مصر ، وسمع منه وطلب العلم على يده ، بل وطلب منه أن يقوم بشرح لمختصر أبى الحسن الطليطلى[٣] وقد اصطحبه معه منسا موسى عند عودته إلى بلاده .

كما جاء إلى مصر ضمن ركب حجاج السودان الغربي عام (٨٩٠هـ/ ١٤٨٤م) عدد كبير من أبناء تلك البلاد والتقوا بفقهاء المالكية في مصر ، منهم أحمد بن عمر بن محمد أقيت المتوفى عام(٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م)، وقد التقى هذا الفقيه بخالد الأزهري[٤] وهو من أعلام النحو مما كان سبباً في ارتفاع شأن أحمد بن

---

(١) العمري : مسالك الإبصار ، جـ٤، ص ٧١.

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، ص٢٨٣.

(٣) القاضي عياض :مصدر سابق ، جـ٦، ص١٧١، ١٧٢،أبن فرحون : مصدر سابق ، ص ٢٩٤، ٢٩٥.

(٤) هو خالد بن عبد الله بن أبى بكر الجرجاني وهو من أعلام النحو للمزيد ، أنظر السخاوى "محمد بن عبد الرحمن المتوفى عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م" الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١، ٢٠٠٣م ، جـ٣، ص ١٥٣، ١٥٤.

عمر بن محمد أقيت في مجال العلم حيث أصبح فقيها لغُويا نحويا وانتفع به جمع كثير من أبناء وطنه حين عاد إليه ، كما التقى بالإمام جلال الدين السيوطي المتوفى عام (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) ، وكان للإمام السيوطي هذا العديد من المؤلفات في التفسير والحديث والأصول وغيرها من العلوم[١] .

وقد استمرت رحلات الحج وطلب العلم إلى الحجاز والمشرق ، فعندما حج أسكيا محمد الكبير عام(٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) كان في صحبته عدد كبير من الفقهاء[٢] ، بما لا يدع مجالاً للشك في أن هؤلاء الفقهاء السودانيين وغيرهم قد التقوا بأعلام فقهاء مصر المالكيين الذين ذاعت شهرتهم في المذهب المالكي شرقاً وغرباً، ومن هؤلاء الفقهاء المصريين شمس الدين اللقاني (٨٥٧ـ٩٣٥هـ/ ١٤٤٢ـ١٥٢٨م) ، وكان من حفاظ مختصر خليل وانفرد بإقراء هذا المختصر هو وأخوه ناصر الدين (٨٧٣ـ٩٥٨هـ/ ١٤٦٨ـ١٥٥١م)[٣] حيث كانا من العلماء الأجلاء وكان عليهما مدار المذهب بمصر[٤] ، ولذلك تفقه عليهما العديد من أبناء السودان الغربي مثل الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت (٨٦٨ـ٩٥٥هـ/ ١٤٦٣ـ١٥٤٨م) الذي جاء بصحبة ركب الحجيج السوداني عام (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م) ، وأقام في القاهرة فترة التقى فيها بالأخوين اللقانى ودرس عليهما ثم عاد إلى بلاده فقيها وإماما فاشتهر بعلمه هناك وظل ملازما للتدريس وخاصة الفقه المالكي في بلاده بعد عودته وكان أكثر ما كان

---

(١) للمزيد عن السيوطي أنظر السخاوى : المصدر السابق ، جـ٤، ص ٦٠، ٦٤.

(٢) ومن فقهاء رحلة أسكيا محمد ، الفقيه صالح جور ، ومحمد تتنك ، والقاضي محمود يدبغ ، والشيخ مور محمد ، والقاضي محمود كعت ، أنظر محمود كعت :الفتاش ، ص ١٦.

Brent Singieton : Aselect bibliography of the Songhay Empire ,Africa,vol.٣١\٢٠٠٤,p ٣٦٠.

(٣) عن شمس الدين اللقانى وأخيه ناصر الدين اللقانى أنظر :أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص٥٨٦، ٥٨٧، ٥٩٠، ٥٩١.

(٤) المصدر السابق :ص ٥٨٦، ٥٨٧.

يدرسه من كتب هذا الفقه المدونة ، والرسالة ، ومختصر خليل . وانتشر عنه إقراء مختصر خليل في بلاد السودان الغربي ، كما وضع شرحا لموطأ الإمام مالك في سفرين كبيرين[١] .

كما أخذ عن اللقانيين الفقيه محمد بن أحمد بن أبى محمد التازختى المتوفى عام (٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م) والذي كان مصاحبا للفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت[٢] في رحلة حجه سالفة الذكر، والذي حضر دروسها في الفقه وخاصة كتاب مختصر خليل[٣] . كما التقى التازختي أيضاً بالفقيه القلقشندى الذي كان محدثا وفقيها[٤] مما جعل هذا الفقيه عند عودته إلى بلاده فقيها عالما محدثا ذائع الشهرة ، ووضع تقييدا على مختصر خليل[٥] .

كما جاء إلى القاهرة من بلاد السودان الغربي مع الحجيج وفد للأخذ من فقهائها وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، وكان هذا في عام (٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م)، وكان في طليعة هذا الوفد الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت (٩٢٩-٩٩١هـ/ ١٥٢٢-١٥٨٣م) الذي التقى في القاهرة بجماعة من أعلام المذهب المالكي ، منهم ناصر الدين اللقاني ، والفقيه الأجهوري المتوفى عام (٩٥٧هـ/ ١٥٤٩م) والذي كان مداوماً على تدريس مختصر خليل لطلبة العلم مما

---

(١) السعدي تاريخ السودان ، ص٣٨ ، ٣٩.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩.

(٣) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص٥٨٧ ، السعدي مصدر سابق ، ص ٣٩، ٤٠ ، الاروانى : مصدر سابق ، ص ٩٣

(٤) هو :إبراهيم بن على بن أحمد إسماعيل القلقشندى "وكان محدثا وفقيها، أنظر السخاوى : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٦٤، ٦٥.

(٥) السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٩، ٤٠.

كان سبباً في ارتفاع مكانته وذيوع صيته في مجال العلم وخاصة الفقه المالكي حتى قال عنه ابنه الفقيه أحمد بابا :"...إنه أعرف من رأيناه في الفقه..."[١] .

وخلاصة القول إن مرور و إقامة أبناء السودان الغربي في القاهرة قد هيأ لهم الفرصة للقاء أعلام المذهب المالكي من المصريين ، وكذلك غير المصريين ممن طاب لهم المقام في القاهرة منهم الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن الحاج الطرابلسي المعروف بالتاجوري المتوفى عام (٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) وهو من أعلام المذهب المالكي ، وكان قد تتلمذ على يد الأخوين اللقانيين وغيرهما ، وكان مدرسا للموطأ والرسالة والتهذيب ، والتقي في مصر الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت ، وكذلك الفقيه محمد بغيغ الذي شهد له حلقاته الدراسية[٢] ، وهكذا كانت رحلات الحج والرحلات العلمية عاملاً مهماً من عوامل توطين المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي. وكان هذا واضحا من خلال مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء الذي تزودوا بمعارف مدن المشرق وفي مقدمتها القاهرة لينقلوها إلي مدنهم في بلاد السودان الغربي.

(١) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٦٣.